## مدارك البشرية : آفاق كلمات

# تحفظات المصدر والتقاليد المتوارثة في خلاصة فلسفية عن عالم الباطن

عندما تعجز مداركنا البشرية عن استيعاب الحقائق الكبرى، فلنتبصر بما اصبح جليا لوعينا البشري، بعد ان نتعمق بمدارك هذا الوعي، ونفكر مليا بما ادركه ونحلله التحليل العميق، فيبدا عندئذ التمييز الدقيق يرشدنا الى استنتاجات متقدمة تمهد لنا السبيل الى المقارنة التي قد تكون متحفظة في بادىء الامر مع الحقائق الكبرى...

هنا من الممكن ان نشعر بهذه التحفظات تنتصب امامنا كالجدار المنيع الذي يصعب اختراقه، وقد نبدا بالتراجع نادمين على هذا الوقت الذي اضعناه هباء في توصلنا الى هذه الاستنتاجات. لكننا وفي احدى مراحل تراجعنا نشعر بقوة دفع عكسية تحاول ان تكبدنا عن هذا المسار التراجعي الى النقطة التي ابتدا منها. فيبدا عندها صراع قوي بين جدار التحفظات التي واجهتنا وهذه القوة الخفية التي تدفع بنا الى اختراق هذا الجدار؟...

عندها وفي خضم هذا الصراع نبدا البحث عن وسيط سلام، فيلوح في الافق خيال مسرع، ما يلبث ان يصبح بيننا، معرفا عن نفسه بانه الحياد الايجابي عارضا علينا التو[illegible] في هذا النزاع الدائر، واعدا باحلال الس[illegible] المنشود بحل ما. فلنفسح له في المجال [illegible]رى الى ما سيوصلنا.

يستهل الحياد مهمته بالتفكر بدوافع هذه التحفظات وتحليلها، متسائلا عن مصدرها، ولماذا بدات خجولة ثم اخذت تتعاظم عند الوصول الى تلك الاستنتاجات؟... انها ولا شك لم تات من فراغ، اذا ربما انها تولدت من التعاليم السائدة والمسلم بها، ومن التقاليد المتوارثة، وطرق التنشئة الملتزمة. فهذه التعاليم الايمانية صارت مُسلّمات لانها نتيجة اختيار، لخلاصة فلسفات تمّ الالتزام العام بها، وهذه التقاليد اصبحت عادات يصعب الخروج منها خوفا من استنكار المجتمع وهذه الطرق في التنشئة اضحت مستمدة من تلك التعاليم والتقاليد الانفة الذكر.

واذا تعمّقنا في هذه التعاليم الايمانية، ومن اين استلهمت، نرى انها جاءت نتيجة سعي سابق لايجاد مرجعية يستند ويطمئن لها الوعي البشري في ذلك الزمن وصارت التقاليد طريقة لنقل لها من جيل الى جيل، فاضحت التنشئة التزاما مُقيدا بهذه وتلك...

ثم انتقل الحياد للتفكير بالدوافع التي حركت انوعي الحالي للوصول الى الاستنتاجات المتقدمة التي اشعلت الصراع، محللا اياها بان هذا الوعي ربما وصل الى مرحلة شعر عندها انه اصبح مؤهلا، وبحاجة الى تاكيد اكثر، مقا ووضوحا للتعاليم السائدة، وتململا لحركة ما في سكون هذه التقاليد في سبيل تنشئة اكثر تطورا، لالتزام امتن بتعاليم ملموسة اكثر، وتقاليد متحركة ايجابيا اكثر...

### من الحياد الى التمييز

عند هذه النقطة من التفكير والتحليل، انتقل الحياد الى التمييز بين دوافع اطراف الصراع؟... فارتسمت على محياه علامات التعجب والتساؤل عن موجبات هذا النزاع الدائر من دون اسباب واقعية، منطقية، ملزمة، اوضحها بالاستنتاج التالي:

بما ان الوعي البشري الحالي استمد تلك الاستنتاجات المتقدمة منطلقا في تفكيره وتحليله، من التعاليم والتقاليد وطرق التنشئة التي كانت تعتبر مُسلّمات لا يمكن الخروج عنها، فانه انطلق اذا في بحثه من حركة جديدة اختلجت في كيانه تدفعه للتعمق في تلك المسلمات وتشريحها والغوص في ابعادها، فتبين له بعد مرحلة التمييز الدقيق، ان تلك المسلمات ما وجدت في ذلك الزمان الغابر، الا لتُحضّره لتطوير تعامله معها في زمن لاحق. فهو اذا انطلق منها كنقطة ارتكاز للوصول الى استنتاجات فهم اعمق لمقصدها، على ان تصبح استنتاجاته المتقدمة هذه، مسلمات جديدة، متطورة ومهياة لتكون نقطة ارتكاز ثانية، لانطلاقة اوسع في التطور على مسار الهدف السامي، الا وهو الاكتمال بالوعي الانساني... اي ان حركته لم تات لتنقض بل لتحاول ان تكمّل...

ارتاح الحياد لهذه النتيجة، مقدمها لطرفي النزاع، مبينا ان ما حصل من تحفظات تجاه حركة الوعي، كان منشاه التفوقع السائد والناتج عن ذلك الخوف من اقتحام المجهول، وعن الرهبة من الارتفاع الى طبقات الوعي الاعلى، تهيبا من الضياع عن الايمان... لان الوعي العام السائد يعتبر ان للانسان حدودا معينة عليه الالتزام بها.

ولكن اذا تاملنا تلك الدوافع التي حركت البحث والتقصي والتبحر، لشعرنا تلقائيا بان مفهوم الحدود المعيّنة في غير محله...

طوني صباغ

الانوار
١٩٨٥/٦/٦